ـ 2 ـ

دين نهاية الزمان في أمريكا

ينظر معظم الأوروبيين (ومنهم الفرنسيون!) إلى الأمريكيين بوصفهم أبناء عمومتهم تقريبا: فعلى جانبي الأطلسي هنالك تشديد على «نحن»، وكلنا نأخذ هذا النوع العائلي من العلاقة قضية مسلما بها. هذا يعني أساسا أننا نتقاسم القيم والتقاليد الثقافية نفسها. وعلى الرغم من جميع اختلافاتنا الظاهرة، يعيد السياسيون توكيد هذا الاعتقاد الجوهري مرارا وتكرار. ومن الواضح أن هذا الاعتقاد بالوحدة يوفر ركيزة للعلاقة المتميزة بين بريطانيا والولايات المتحدة. لكن السياسيين الألمان يصرون بإلحاح أيضا على أن الصداقة التقليدية بين بلدينا لها جذور أعمق بكثير من التحالف الوثيق الذي تشكل بعد الحرب العالمية الثانية. فالهجرة من أوروبا إلى الولايات المتحدة، إضافة إلى التلاقح في القرن الماضي، كانت تعني وجود علاقات حميمة بين الشعب الأمريكي وشعوب أوروبا. وعلى الرغم من الانقسامات الداخلية ربما جسدت المسيحية، أو ما يسمى بالتراث اليهودي ـ المسيحي، أوثق الروابط وأقواها.

من المهم تذكر هذا الميراث المشترك العميق الجذور. لكن ذلك يجب ألا يمنعنا من الاعتراف بأن الانقسامات داخل العالم الغربي وضمن

التراث اليهودي ـ المسيحي تتنامى وتتعاظم. في الفصل الأول ذكرت حقيقة أن المكونات المسيحانية «لدين أمريكا الوطني» لا يشترك بها معظم الأوروبيين. بل إن الأوروبيين لا يفهمونها. يعكس ذلك نوعا من خيبة الأمل بالأيديولوجيات السياسية شبه الدينية التي دمرت البلدان الأوروبية. ومن ثم يمكن رؤية العلمنة المنتشرة في «أوروبا القديمة» بوصفها استنزافا روحيا أيضا. فقد سئم الناس «المعارك الروحية» الأيديولوجية، وتراودهم الشكوك في الزعماء السياسيين الذين يدعون إلى بحث جديد عن «روح أوروبا».

باعتباري لاهوتيا مسيحيا، تقلقني على نحو خاص الانقسامات المتنامية داخل المجتمعات والطوائف المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة. ومن المؤكد وجود اتصالات وثيقة ومستمرة بين الكنائس البروتستانتية هنا والكنائس الرئيسة في الولايات المتحدة (أفترض أن الأمر ذاته ينطبق على الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية). لكن هذه الرابطة تجمع الكنائس ذات المواقف «الليبرالية». وتستثني الطوائف والمجتمعات المسيحية الإنجيلية والكاريزمية التي تتنامى باطراد. لا يوجد في أوروبا نظير لـ«حزام الانجيل»* في الولايات المتحدة. ولا يعرف اللاهوتيون الأكاديميون وزعماء الكنائس في أوروبا كيف يتواصلون مع الأخوة والأخوات المنتمين إلى اليمين الديني، ولدي انطباع بأن ذلك يصدق أيضا على الكنائس الليبرالية في الولايات المتحدة. ولا يبدي الزعماء المسيحيون المحافظون في الولايات المتحدة أي اهتمام لفهم التجارب المحددة التي أثرت في الكنائس البروتستانتية في أوروبا. وإضافة إلى الفوارق التقليدية في اللاهوت

* منطقة ممتدة عبر الجنوب والغرب الأوسط من الولايات المتحدة تهيمن عليها عموما الأصولية الدينية. (م)

والعبادة، فإن البروتستانتية المعاصرة منقسمة انقساما عميقا على طول الخط المحافظ/ الليبرالي[1].

«المتروكون» مثال معبر في هذا السياق: فسلسلة أفضل الكتب مبيعا في أمريكا لم تحرك ساكنا في حياة الكنائس في أوروبا. والأجزاء الاثنا عشر الأصلية من السلسلة، التي كتبها تيم لاهاي وجيري جنكينز، وارتقت إلى صناعة هائلة (سلسلة للأطفال، فيلمان سينمائيان، برامج موسيقية، ألعاب كمبيوتر، وجميع المنتجات «ذات الحق الحصري» التي صاحبت النجاح الكاسح)، لا يوجد أي منها في أوروبا[2]. ومن المؤكد أن هذا الانقسام يخبرنا الكثير عن الحالة الروحية للأوروبيين. فإذا نظرنا إلى لائحة الكتب التي حققت أعلى المبيعات، نجد أن الأوروبيين أشد اهتماما بما يحدث للفتى هاري بوتر مقارنة بما يحدث للمسيح. وهذه ظاهرة يجب أن تقلق الكنائس المسيحية في القارة الأوروبية.

لكن هذا ليس الخط الذي أريد اتباعه هنا. بل إن سؤالي هو: لماذا تعد منتجات مثل سلسلة «المتروكون» «أهلية محلية» لشريحة واسعة من الناس في الولايات المتحدة؟ وهل هي نامية طبيعية من التقاليد الدينية التي فاق أثرها المركّز في تكوين الولايات المتحدة أثرها في تكوين مجموعة البلدان التي أتى منها معظم مواطنيها؟ ومثلما أفعل في فصول الكتاب كافة، أذكر قرائي بأنني أصف كيف يفهم الطرف الأوروبي من الأطلسي هذه الأمور.

«المتروكون» : ملاحظات حول تاريخ السيناريوهات الرؤيوية

ليس ثمة حاجة لأن أروي بالتفصيل محتوى هذه السلسلة الاثني عشرية. فهي تزعم أنها رواية سردية تبين ما قاله الكتاب المقدس، خصوصا سفر

الرؤيا، عن الأيام الأخيرة للعالم التي تبلغ أوجها في العودة الثانية للمسيح. ووفقا لهذه القراءة للكتاب المقدس، سوف يبدأ الزمن الحاسم بصعود المؤمنين الأبرار الصادقين إلى غيوم السماء (الاختطاف أو الصعود)، لإنقاذهم من محن وبلايا السنوات السبع (الضيقة). خلال هذه السنوات سيظهر المسيح الدجال ويتمكن من توحيد جميع سكان الأرض في دين واحد وتحت حكم واحد. ثم يقود جيوش العالم الجرارة في الحرب على جيش المقاومة الصغير والسري المكون من المسيحيين (إضافة إلى 144 ألف يهودي بالضبط). في نهاية المطاف ستلحق الهزيمة بالدجال، ويعتقل، ويرمى في حفرة من قبل القوى السماوية بقيادة المسيح، الذي سيقيم عهد السلام الممتد ألف عام (قبل أن يسمح للشيطان بمحاولة أخرى ضده).

من الصعب تيقن هل يوافق العدد الضخم من قراء السلسلة على كل تفصيل جاء فيها. وأتصور أن العديد منهم من شريحة المستهلكين الذين يتلقفون بالشغف نفسه قصص الخيال العلمي الأخرى. ولربما نرى هنا نوعا جديدا من «القص الديني». فتركيز الكتب على سيناريوهات القيامة الرؤيوية ونهاية الزمان لا يشترك فيه المسيحيون الإنجيليون كلهم. وفي الحقيقة، تعرضت سلسلة الكتب للانتقاد من الإنجيليين أنفسهم[3]. ومع ذلك، يظل من اللافت أن ينجذب ملايين الأمريكيين إلى هذا النوع من الأدب ـ حتى وإن كان مجرد «تسلية فانتازية» للعديد منهم.

لاحظت أن هذه السلسلة ليست أول محاولة لكتابة قصة آخر أيام البشر، ولن تكون الأخيرة. على سبيل المثال، بدأت «تيندال هاوس»، دار النشر التي جنت هذا المال كله من روايات «المتروكون»، بنشر سلسلة «العد التنازلي للصعود» (على شاكلة السلسلة الأولى وأفلام حرب النجوم).

أما كتاب ليندسي «كوكب الأرض العظيم السالف» (1970) فكان رائدا أثر في الأعمال اللاحقة فيما يتعلق بمفهومه عن «الصعود». لكن حتى قبل ليندسي ظهرت محاولات عديدة للإجابة عن الأسئلة الملحة المتعلقة بنهاية التاريخ واتصالها بالهدف النهائي للحياة على الأرض.

في الحقيقة، تعود أصول هذه الأسئلة إلى العهد التوراتي وشغلت اللاهوتيين والفنانين منذ ذلك الحين. وليس من المبالغة القول إن سفر الرؤيا مارس تأثيرا أكثر انتشارا وإشكالية في العالم المسيحي من الأسفار الأخرى. يكفي الإشارة إلى صور «مدينة الله» أو «المدينة المقدسة» أو «عناقيد الغضب» لتقدير تأثيره الواسع النطاق في الروحانية المسيحية، فضلا على الفن الديني، على مدى القرون. يورغن مولتمان قدم نظرة شاملة ممتازة للطرائق التي وجد بواسطتها التفكير بـ«الأيام الأخيرة» ـ الجانب الأخروي من الإيمان المسيحي ـ التعبير عن نفسه في العقود المبكرة من المسيحية، والقرون الوسطى، وفي العصور الحديثة أيضا[4]. وهو يبين أن هناك تشديدا كبيرا على «الأخروية المسيحانية» في حقبة ما بعد عصر الإصلاح. ويشير إلى المصادر الإنكليزية والهولندية والإيطالية والألمانية ليظهر أن الجماعات المسيحية تزداد افتتانا بفكرة أن مملكة الله هي حقيقة تتكشف في الزمن الحقيقي. والذين اعتنقوا هذه المعتقدات الإيمانية المثيرة والمحفزة هم غالبا الذين تركوا أوروبا وهاجروا إلى العالم الجديد، لأن هذا العالم المنتظر بدا أنه يملك جميع آيات وعلامات المملكة[5].

لكنهم لم يكونوا كلهم كذلك. فهنالك جماعات كبيرة العدد من الناس الذين بقوا ودرسوا النصوص الرؤيوية عن القيامة في ضوء عصرهم وتجاربهم المحددة. هنالك مثالان يوضحان ذلك. خلال الحروب

النابليونية، التي سببت دمارا كبيرا وفوضى عارمة في بلدان وسط أوروبا، توصلت بعض المجتمعات المحلية الريفية القريبة من بلدة جامعة توبينغن إلى نتيجة مفادها أنها تعيش حتما في نهاية الزمان، وأن نابليون بما حققه من نجاحات ساحقة لا يمكن تعليلها، هو المسيح الدجال بالتأكيد. وكانوا على قناعة تامة بأن المسيح سيظهر مرة أخرى في أرض قيصر روسيا المسيحية لأنه قاتل الكفار الفرنسيين بمثل هذه الشجاعة. وفي نهاية المطاف، اعتقدوا أن المسيح سيعود حتما إلى جبل ارارات لأن سفينة نوح رست عليه.

وحين أخذ زعماء المجتمعات المحلية الريفية الصغيرة جميع هذه الأمور بعين الاعتبار، استنتجوا أن من الآيات الدالة على الطاعة والتقوى انتظار العودة الثانية للمسيح على سفح جبل ارارات في أرمينيا. ولهذا، غادر عدة آلاف من الرجال والنساء والأطفال قراهم في المانيا وتوجهوا في رحلة طويلة إلى الجبل ــ وهم ينشدون التراتيل المعبرة عن تشوقهم إلى المسيح. لكن بعد بضعة أيام بدأت المشكلات تعترض«الحجيج» ، ومات معظمهم في الطريق. ولم تصل إلى الهدف سوى جماعة صغيرة منهم؛ ولولا أن بعثة بال التبشيرية وفرت لهم بعض مستلزمات البقاء والاستقرار لماتوا جميعا. بعض قرى هؤلاء الحجاج ظلت قائمة حتى بعد الحرب العالمية الثانية، ليقوم ستالين بنفيهم إلى كازاخستان النائية. فضاع أثرهم واختفى هناك[6].

المثال الآخر يجسده اللاهوتي الشهير يوهان البريخت بنغل (1687 ـ 1752)، الذي كان شخصية واسعة النفوذ خلال عصر اليقظة التقوية الألمانية. فقد قادته دراساته لسفر الرؤيا إلى توقع نهاية العالم في الثامن

عشر من حزيران/ يونيو 1836. و«في اليوم التالي»، حين لم يحدث شيء، أصاب المجتمعات المحلية التقوية هياج كبير واضطراب فظيع. لكن كان لذلك تأثير مهدئ دفع الزعماء المسيحيين إلى إدراك حقيقة أن من الأفضل منطقيا وعقلانيا ترك فكرة ظهور مملكة الله جانبا، فالإيمان الحقيقي بالخالق يمنع المؤمن من حساب التواريخ والمواعيد، وأن نهاية الزمان قد تحدث/ أو لا تحدث ضمن إطار نظام التقويم الخطي. ونظرا لأن الله هو رب الزمن، فهو قادر على إحداث تحول عميق في سيرورته[7].

ما كان يحدث في المانيا هو تغير خفي من الحسابات الألفية إلى الاعتقاد الروحي أو الإيمان الجواني بالألفية (حكم المسيح على الأرض الذي يدوم ألف عام)، تغير رأى ظهور مملكة الله من خلال التحسين المتدرج والإصلاح البطيء لحال البشر وشؤونهم الدنيوية. وعبرت عن هذا التحول كتابات يوهان اموس كومينيوس، آخر أساقفة «كنيسة مورافيا» (1592 ـ 1670) التي تعرض أتباعها للاضطهاد، وأصبحت مكونا من مكونات الفكر الإنسانوي والتنويري. يمكن رؤية آثار اهتمامات كومينيوس في أعمال الكاتب والفيلسوف الشهير غوتهولد افرايم ليسينغ (1729 ـ 1781). فقد كان كلاهما على قناعة بأن ظهور مملكة الله لن يقترب إلا عبر العمل على تحقيق إصلاحات تعليمية وتربوية. وحسب تعبير يورغن مولتمان: «مملكة الله آتية، لكنها لن تكون نتيجة ثورة رؤيوية يحدثها الله؛ بل عبر نمو العقل والمنطق والأخلاق بين البشر»[8]. الانشغال بسيناريوهات نهاية الزمان في المانيا غاب بوصفه ظاهرة شعبية منتشرة، وإن بقي محصورا في بعض الأوساط الصغيرة والمحدودة[9].

لم تكن الحال كذلك في البلدان الأخرى. فقد استمر فيها «البحث النبوئي». وظل اللاهوتيون والإنجيليون يبحثون عن طرق لقراءة آيات

وعلامات الزمن. فبرأيهم أخطأ يوهان بينغل في قراءة الحقائق ـ فضلا عن أن المجتمعات المحلية التي يرثى لها قرب توبينغن، قد خلطت الأمور كلها[10]. ومن اللاهوتيين الذين زعموا أنهم وجدوا المفتاح الصحيح لتاريخ الخلاص جون نيلسون داربي، الأرستقراطي الأيرلندي الذي ولد عام 1800. أصبح داربي راعي كنيسة إنكلترا، لكنه انشق عنها وأسس كنيسة بليموث. أما السبب الرئيس الذي جعله يدير ظهره للكنيسة الانكليكانية فهو تساهلها مع أشخاص لم يهتدوا. وسوف تضم «الأخوية» مجتمعا من الرجال والنساء الملتزمين نقاء الدين والعقيدة والحياة. وبالطبع، استفزت هذه الصرامة في الطهر والنقاء العديد من الانشقاقات، لكن «الداربية» استمرت. وأغلبية أتباعها يعيشون الآن في الولايات المتحدة، مع بعض المجتمعات المحلية الصغيرة في المانيا[11].

لكن التأثير الرئيس الذي مارسه داربي في الأجيال الآتية تمثل في فكرته عن الآخرة ـ أي «عقيدته المتعلقة بآخر الأشياء». إذ ارتكزت على الافتراض بأن كل كلمة من كلمات الكتاب المقدس هي وحي من الله، ومن ثم فإن إرادته وغرضه متضمنان حتما في الكتاب. وفيما يتعلق بتاريخ عمل الله الإنقاذي لخلاص البشر، يجب أن تكون الفقرات النبوئية والرؤيوية في الكتاب المقدس «خريطة طريق» ربانية تؤدي إلى مملكته. وقراءة داربي للكتاب المقدس دفعته إلى الاعتقاد بأن تاريخ العالم مر عبر سبع مراحل قدرها الله، وأن نهاية السابعة ـ ومن ثم بداية «الضيقة» ومحن وبلايا نهاية الزمان الرؤيوية ـ قد بدأت[12].

من الواضح أن داربي لم يكن الوحيد الذي اقترح مثل هذه الأفكار. فالقس الإنجيلي الشهير دي. ال. مودي شاركه إلحاحه على بلوغ نهاية

الزمان، مثلما فعل سي. اي. سكوفيلد، الذي خضع كتابه «إنجيل سكوفيلد المرجعي» (1909) لدراسة مستفيضة وحظي بقبول واسع من القراء الكثر. وبالمناسبة، فإن من المثير ملاحظة ظهور ثلاث طوائف في أمريكا، بالتزامن مع انتشار الدرابية في العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر، تحمل رسائل رؤيوية واضحة: المؤمنون بقرب عودة المسيح، والمورمون، وشهود يهوه.

من المشكلات المركزية التي واجهت هذه المحاولات كلها لقراءة علامات الساعة ونهاية الزمان وجعلها تتوافق مع النص المقدس ما يلي: وفقا لقراءة رسالة القديس بولس إلى الرومان (خصوصا الرومان 11: 25 وما بعدها)، سوف يرجع اليهود إلى أرضهم الموعودة قبل عودة المسيح المجيدة. ولذلك، حين أقيمت دولة إسرائيل عام 1948، عد الكثير من المتنبئين بنهاية الزمان تأسيسها دليلا تاريخيا لا يدحض على قرب قيام الساعة.

يعطي العمل مع «الأدلة والبينات التاريخية» هذا النوع من التفكير التأملي التخميني فيما يتعلق بتفسير الكتاب المقدس مظهرا «علميا». لكن هذا الإصرار على البينات والبيانات يكشف فعلا عن مقاربة حديثة حاسمة: التعامل مع النصوص التوراتية المقدسة بالطريقة ذاتها التي يستخدم فيها العلماء الطبيعيون البيانات الفيزيائية أو الكيميائية. ففي المجالين كليهما تحلل المواد للتوصل إلى نتائج علمية واضحة. أجد من المهم تسليط الضوء على هذه المقاربة الحديثة في أعمال مثل «المتروكون» من أجل تحدي مزاعم كتابها بأن حكاياتهم ليست سوى سرد واضح وبسيط لرسالة الكتاب المقدس. فهي مجرد تفسير حرفي/نصي ومتزمت يرتبط بالمادية التاريخية والتفاؤلية العلموية السابقة على اينشتين، أكثر من ارتباطه بالروحانيات المتنوعة في النصوص المقدسة[13].

في الجوهر، نحن نواجه مشكلة تأويلية ملحة. كيف يجب تفسير نصوص الكتاب المقدس؟ المشكلة لا تقتصر على الأمريكيين فقط. بل هي هم عالمي، يشغل جميع الكنائس: كيف نقرأ الكتاب المقدس؟ ماذا يمثل المسيح بالنسبة لنا اليوم؟ من المؤسف أنه لا يوجد سوى قلة من اللاهوتيين الأكاديميين المستعدين لقبول هذا التحدي. أما الخبراء العاملون في المجالات ذات الصلة فلا يرغبون في الانشغال بظاهرة مثل سلسلة «المتروكون». فبرأيهم انتهى هذا الجدل منذ أمد بعيد، بسبب ظهور النقد التاريخي والمناهج ذات الصلة لتفسير النصوص المقدسة[14]. وفي حين قد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لهم، إلا أنه لم يصل إلى نهايته بالنسبة للملايين من عامة الناس في شتى أرجاء العالم.

لماذا ننشغل بهذه المسألة؟ أليس من الأفضل ترك هذه الموجة من الحديث عن نهاية الزمان وعلامات الساعة تأخذ مجراها وتستنفد زخمها إلى أن تخنقها أحلامها المجهضة؟ ردي على ذلك هو: إنها ظاهرة بالغة الخطر ويجب عدم السماح لها بالخروج عن نطاق السيطرة، للأسباب الثلاثة التالية.

السيناريوهات الرؤيوية تشترك فيها جميع الأديان

نحن نواجه حقيقة واقعية موجودة في جميع الأديان. والمفزع أننا لا نتعامل مع الرؤيوية المسيحية وحدها. فهناك نسخ إسلامية تتبنى الفكرة ذاتها، وهي تستعير أفكارها بكل حرية من المعلقين المسيحيين، وإن بطريقة تفسيرية مناقضة كليا. ومثلما أشار ديفيد كوك، هنالك تراث إسلامي عن علامات الساعة ونهاية الزمان يعود إلى المصادر التوراتية؛ أدى إلى

ظهور سيناريوهات مؤثرة عن نهاية الزمان تنتشر انتشارا واسعا في العالم الإسلامي[15]. فالمسيح الدجال في الإسلام هو الأعور الدجال، الذي سيظهر في نهاية الزمان لغواية المسلمين وإبعادهم بضلاله عن الإيمان الحق. وفي الحقيقة، يتحمل الأعور الدجال أيضا مسؤولية ما يعانيه العصر الحديث من حرمان وسيئات وأعمال منكرة. على سبيل المثال، يسيطر الدجال على صناعة السينما في هوليود! بل إن الإسلام أعطى المسيح ـ بوصفه هنا منقذ المسلمين ـ دور إلحاق الهزيمة النكراء مرة أخرى بالدجال وتمهيد الطريق لعودة المهدي المنتظر، الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما. ومن اللافت أن المهدي المنتظر سوف يحكم من القدس، وهذا يقتضي ضمنا أن الكعبة ستنتقل من مكة إلى القدس.

وفقا لأبحاث ودراسات كوك، فإن الكاتب المصري سعيد أيوب كان رائد المنادين المعاصرين بفكر نهاية الزمان الرؤيوي الإسلامي. فكتابه «المسيح الدجال» (1987)[16] ألهم كتابا آخرين قدموا سيناريوهات مشابهة. وعلى الرغم من التنويعات، فإن العامل المشترك بينها هو أن الأعور الدجال يهودي، وأساليبه للسيطرة تآمرية. واستطاع هذا الدجال تدبر أمر الهيمنة على الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي.. ولذلك، فإن محاولات إسرائيل للسيطرة على القدس وجبل المعبد تثير شكوكا عميقة: إنها رغبة الدجال في احتلال مكان المهدي المنتظر. من السهل نسبيا وصف هذا النوع من الأدب الرؤيوي بأنه خليط من الأفكار الإسلامية التقليدية، ونظريات المؤامرة الحديثة، ومشاعر معاداة السامية* القوية.

* هذه ليست نظريات مبنية على المؤامرة وأنها ضد السامية بل هي مبنية على أسس دينية إسلامية صحيحة موثقة من السنة وليست روايات كما هي الحال في الغرب الذي مست أيدي المحرفين الكتب المقدسة وأحدثت فيها ما ليس منها.

ولذلك، ليس من المفاجئ رؤية الكتب والمنشورات الإسلامية المتعلقة بنهاية الزمان تنتشر في مصر وبين الشعب الفلسطيني. ومن المنطقي الافتراض أيضا أن هذه الكتابات أسهمت في الانتفاضات الفلسطينية؛ ويرجح أنها أثرت في العمليات الانتحارية.

يقودني ذلك كله إلى السبب الثاني الذي يجعل السيناريوهات الرؤيوية عن القيامة تستحق اهتمامنا الجدي: قابليتها للاستغلال السياسي ـ أي: لاهوتها السياسي الذي يجب مواجهته.

اللاهوت السياسي للسيناريوهات الرؤيوية

لدينا سيناريوهات رؤيوية عن القيامة في المسيحية والإسلام تنطلق من الجذور ذاتها لكنها تصل إلى مواقف متناقضة تماما. وهي تضم رسائل سياسية فاقمت الصراع بين إسرائيل والشعب الفلسطيني، وبين إسرائيل والشعوب العربية والإسلامية عموما.

الوضع محفوف بخطر أكبر لأننا بحاجة أيضا إلى أن نأخذ بالاعتبار وجود حركة رؤيوية قوية ولافتة داخل الديانة اليهودية. وصف غيرشوم غورينبرغ بالتفصيل كيف تركزت تطلعات ومطامح هذه الحركة اليهودية على بناء المعبد الثالث على جبل المعبد، الذي عدته شرطا رؤيويا حاسما لظهور المسيح*. يظهر غورينبرغ أيضا كيف تعاونت الجماعات اليهودية مع الطوائف المسيحية الرؤيوية في سبيل الاستعداد لنهاية الزمان. ومن نافل

* هذه الأقوال ما هي إلا إدعاءات وأكاذيب يتخذها الصهاينة مبررات لتنفيذ مخططاتهم بهدم وتدمير أماكن العبادة الإسلامية كالأقصى وغيره في فلسطين المغتصبة ويجعلون الدين ذريعة لتحقيق تلك المخططات والدين منهم براء.

القول إن بناء المعبد الثالث سيتطلب تدمير قبة الصخرة والمسجد الأقصى الشهير ـ وهو سيناريو يثير حفيظة وغضب العالم الإسلامي برمته[18].

الخير مقابل الشر ـ نظرة ثنوية إلى العالم

في البداية حسبت أن من المسلي أن يجد توم لاهاي وجيري جنكينز المسيح الدجال المتخيل في أوروبا ـ في رومانيا على وجه التحديد ـ حيث أطلقا عليه اسم نيكولاي كارباثيا. وبالنسبة لأولئك الذين يعرفون شيئا عن التاريخ القريب، يبدو واضحا أن المسيح الدجال هذا يشبه نيكولاي شاوشيسكو، ديكتاتور رومانيا الذي أوصل الشيوعية إلى حدودها الدموية القصوى. يستدعي «كارباثيا» إلى الذاكرة الصور المروعة في أفلام الرعب مثل دراكيولا وفرانكشتاين. أما الرسالة السياسية فواضحة لا لبس فيها: الشيوعية أرض خصبة للقوى التي تنتج التحالف الرهيب بقيادة المسيح الدجال. فضلا على ذلك، فإن «أوروبا القديمة» برسائلها العلمانية، هي التي توفر السياق المناسب الذي يمكن فيه للمسيح الدجال البدء بمشروعه. ولذلك ليس من المفاجئ أن يعد مؤلفا «المتروكون» الجماعة الأوروبية قاعدة يرسخ عليها الدجال سلطته.

سيجد آخرون من الغريب أن يكون الدجال يهوديا يحكم العالم من بيته في فلوريدا[19] لكن من التهور الهزء بهذه التخيلات الفانتازية. فالرسالة السياسية الضمنية تعبر عن الشك وعدم الثقة. كيف سيتفق الإسرائيليون والفلسطينيون على القضايا التي تقسمهم إذا نظروا إلى جميع الاقتراحات السياسية العملية في ضوء المكائد الرؤيوية المشؤومة؟ مضمون «المتروكون» واضح تماما: انظر إلى القوى الأوروبية بعين الشك والريبة. فلربما تزعم أنها إلى جانب الحق، لكنها، عن قصد أو دون قصد، تؤدي عمل المسيح الدجال.

يتعمق هذا الشك حين «يكشف» مؤلفا «المتروكون» أن نيكولاي كارباثيا كان أمينا عاما للأمم المتحدة قبل أن تفتضح هويته الحقيقية بوصفه حاكم «المجتمع العالمي» والعدو اللدود للمسيح. وهذا لا يحول الجماعة الأوروبية إلى منصة للسياسة الملحدة فقط بل يجعل الأمم المتحدة منبرا للملاحدة أيضا. ومن ثم فإن الأتباع الصادقين للمسيح يجب أن يحذروا من مثل هذه المنظمات على أقل تقدير: فإذا لم تدمر، فمن الأفضل السيطرة عليها بطريقة تصبح فيها عاجزة في الواقع العملي.

حالما نعرف من هم أعداء المسيح، لن يكون من الصعب علينا اكتشاف مكان أتباعه وأنصاره. في العالم السردي لتيم لاهاي وجيري جنكينز، يقع المركز الروحي والاستراتيجين «المسيحيين المؤمنين بعودة المسيح» في «مبنى سترونغ» في شيكاغو. ومعظمهم يأتون من «الولايات الأمريكية المتحدة الشمالية»، وتحت قيادة ريفورد ماثيوز، الطيار السابق الذي اهتدى إلى الدين، يشكل محاربو نهاية الزمان «قوة المحنة». ويتلقون العون والمساندة من بعض اليهود الذين آمنوا في نهاية المطاف بالمسيح.

من الواضح لمؤلفي «المتروكون» أن معظم حواريي المسيح القادم الصادقين هم من الأمريكيين. فهم أبطال المسيحانية، وهم إلى جانب الحق وعلى جادة الصواب، في حين اختار الأوروبيون المساكين والضالين السبيل الخطأ ولا بد أن يتعرضوا للفناء، ولا يمكن فعل الكثير من أجلهم لأن ما يحدث كله جزء من مخطط نهائي صممه رب التاريخ.

أعمل على استقصاء هذه الآراء الرؤيوية المسيحية بشيء من التفصيل لأنها تهمني كمسيحي بطريقة مباشرة أكثر من السيناريوهات الإسلامية.

لكن ذلك لا يقلل من تأثير الرؤيوية/ القيامية الإسلامية. فما تشترك فيه الديانتان هو الثنوية الصارمة، أي تقسيم العالم إلى فسطاطين متعارضين للخير والشر. والتوصل إلى علاقات وطيدة ومستدامة، وتقاسم القيم والثروات فيما بينها.

فيما يتعلق بالمراقبين المسيحيين، تذكر هذه الثنوية أو الانشقاق بهرطقة الديانة المانوية القديمة، التي استندت إلى تعاليم ماني الفارسي الذي عاش في القرن الثالث الميلادي (216 ـ 276). ودون الغوص في التفاصيل، يكفي القول إن ماني علم أتباعه ثنوية راديكالية. فبرأيه، تحكم العالم قوتان متناقضتان، إله النور وإله الظلام، والتاريخ مليء بمحاولات إله الظلام فتح العالم واحتلاله. في البشر عناصر من الإلهين كليهما؛ أما الدعوة النهائية للمانوية إلى الناس فهي تنقية نفوسهم وتطهيرها من الذنوب، أو التحرر من قيود وسلاسل الظلمة، عبر العيش حياة متقشفة إلى أقصى حد ممكن. والمختارون وحدهم يمكن أن يأملوا بالوصول إلى النور. زعمت ديانة ماني أنها الوحي الكاشف النهائي ومن ثم فهي توليفة تجمع الأديان السابقة كلها. انتشرت المانوية في مناطق واسعة ــ من مصر حتى الصين ــ وكانت منافسا عنيدا وضاريا للمجتمعات والطوائف المسيحية في أجزاء واسعة من الشرق الأوسط.

أدانت الكنيسة المسيحية (خصوصا القديس أوغسطين الذي اعتنق المانوية سابقا) هذا المفهوم الديني بوصفه هرطقة، لأنه يناقض بصورة رئيسة العقيدة المسيحية القائمة على الخير والطيبة والنفع. فبرأي الكنيسة في العصور المبكرة، الله هو الخالق الوحيد والصانع الوحيد والحاكم الوحيد للتاريخ. وفي حين أن الكنيسة لم تنكر وجود الشيطان، إلا

أنها تيقنت دوما أن «قوة الظلام» هذه تخضع في نهاية المطاف إلى الخطط والقوى الإلهية. ومع ذلك، بقيت المانوية إغراءا مستمرا، لا بوصفها مؤسسة منافسة فقط بل بالمعنى الذي بدا فيه أن رسالتها تؤكد التجربة اليومية للناس في كل مكان، أي أنهم ينخرطون في معركة لا نهاية لها بين الخير والشر. وهي تظل مغرية وجذابة حتى اليوم لأنها تقلص تعقيدات الحياة إلى بديل أبسط قائم على إما / أو.

هذا الاختزال لتعقيدات الحياة هو الذي يجعل هذه السيناريوهات الرؤيوية جذابة ومغوية. فبغض النظر عن تفاصيلها العديدة الغريبة، تعرض نظرة مبسطة ومسطحة للعالم تقترح حلولا سياسية مباشرة يستحيل تحقيقها عمليا. لذلك، يجب عدم تجاهلها بوصفها حميدة لا تسبب أي ضرر. فهي تسهم في «مناخ روحي» يمكن الناس من تبسيط فهمهم للعالم. وتتيح لهم العثور في عداوة «الشيطان» أو «الشر» على بؤرة تركيز مرغوبة لمعاناتهم وإحباطاتهم. ومن ثم تزودهم بهدف يصبون عليه جام غضبهم. وإذا تبنى عدد كاف من الناس هذه الآراء، وعملوا بنشاط وفاعلية على ترويجها في المجالين العام والسياسي، فإن مثل هذا المناخ سيكتسب تأثيرا تكوينيا لا يجرؤ السياسيون على تجاهله.

على الرغم من كل شيء، تعد هذه السيناريوهات مغرية في بساطتها. فما إن تقبل المقدمة المنطقية التي تقول إن العالم وصل إلى مرحلة النهاية، يصبح من المهم فعلا أن تكون مع الفرقة الناجية في المعركة الختامية. وتعرف أن من المتعذر إنقاذ جميع الكائنات الأخرى، ومنها النباتات والحيوانات، من الفناء النهائي. ومثلما قال بات روبرتسون: «لن نبكي كما يبكي سكان العالم حين تحدث بعض المآسي أو تنهار حكومات

وأنظمة العالم.. فهذا ليس أمرا فظيعا على الإطلاق. بل أمر جيد. رمز دلالي على خلاصنا..»[21].

«هذا التقسيم القائم على «نحن إزاء هم» و«الخير مقابل الشر» ليس مروعا حين يطبق على العلاقات الشخصية فقط؛ بل يصبح مهددا بصورة سافرة حين يهيمن على عملية صنع القرار السياسي. لأنه يضحي بالبحث عن الحلول المستدامة لصالح الحكم القاطع الجازم: «من ليس في صفي فهو عدوي».

آخر الزمان زمان الحرب

ما إن يحظى التقسيم القائم على الخير مقابل الشر بالقبول في عالم السياسة، حتى يتقلص الحيز المتاح للحل السلمي للصراعات. بل على العكس، ترى النظرة التقسيمية للعالم المؤسسات التي تزعم العمل في سبيل السلام العالمي بعين الشك والريبة لأنها جزء من الحرب الأيديولوجية التي يشنها المسيح الدجال لتشويش أذهان البشر فيما يتعلق بالطبيعة الحقيقية للمواجهة النهائية. لا يمكن التوصل إلى تسوية بين الخير والشر. وفي الحقيقة، فإن نهاية العالم أمر مطلوب لوضع حد نهائي لقوى الشر. ولذلك فإن كل شيء في تاريخ العالم يتجه نحو مواجهة حاسمة ومصيرية. وتصبح الحرب طريقة ضرورية يتغلب عبرها المؤمنون من جند الله على قوى الظلام. يصف تيم لاهاي وجيري جنكينز بتلذذ إباحي فظائع نسختهما المرعبة عن معركة ارماجيدون: «رجال ونساء، جنود وأبطال، يتفجرون على ما يبدو حيثما يقفون. كأن كلمات الرب جعلت الدم يغلي في عروقهم، ويتفجر خارجا من جلودهم»[22].

البعد السياسي واضح تماما الوضوح. فاعتناق مبدأ العنف بصورة كاملة له مضامين واسعة فيما يتعلق بالطرق التي يتبعها العالم في التصدي للصراعات السياسية. ومن المؤكد أن السلام القائم على العدل لا يعد مكونا مركزيا في سياسة نهاية الزمان، ولا أمل يرتجى في مصالحة الخصوم والمتعارضين وحل الصراعات. بل على العكس، يتركز تشديد سياسة نهاية الزمان على المواجهة الشاملة. لا يمكن لنزع السلاح أن يمثل هدفا. بل إن أولئك الذين يعتنقون مبدأ المجابهة سيحتاجون من أجل استباق جميع التهديدات المحتملة إلى تطوير مزيد من الأسلحة الذكية المدمرة ـ ومنها الأسلحة النووية. فأي ذريعة أفضل يمكن أن يأمل بها المجمع العسكري ـ الصناعي؟! *

عبء التهديد والخوف والحزن الذي نحمله نحن الأوروبيون تجسده الأوقات العديدة التي عشنا فيها تاريخ الأعداء المكروهين وتدميرهم. المجازر التي ارتكبت في الحروب الأوروبية فظيعة ومروعة، لكنها غدت من ذكريات الماضي إلى حد ما. فقد تمتعنا بترف نسبي تمثل في تدمير جيوشنا ومدننا قبل عصر أسلحة الدمار الشامل. فما الذي سيحدث حين تتصل العقول الرؤيوية، اللامبالية بنهاية كل شيء، بالأصابع التي تطلق زناد الأسلحة النووية؟

موت الخليقة

اعتناق مبدأ العنف لا يؤدي إلى صور الدمار الشامل للبشر فقط؛ بل يضحي عن طيب خاطر بالعالم كله، بأحيائه النباتية والحيوانية. ففي

* الشبكة التي تضم المؤسسة العسكرية وجميع الصناعات الداعمة لها في الولايات المتحدة. (م)

المعركة النهائية برأي المؤمنين بحرفية ما جاء في سفر الرؤيا، سوف تفنى الخليقة برمتها. مرة أخرى نقول إن المضامين السياسية واسعة النطاق بعيدة المدى. فالاهتمام بالبيئة لا يغدو عبثيا فقط (ما الذي بمقدور البشر أن يفعلوه إزاء إرادة الله؟)؛ بل هو في التحليل الأخير علامة على الكفر والعصيان ومعارضة إرادة الله. فمن المحتم أن تنقرض الأنواع الحيوانية والنباتية. وعلى نحو مشابه، ستحدث زلازل وفيضانات غير مسبوقة في حجمها. وستحدث بعض الكوارث التي تصاحب «الضيقة» وتميز الأيام الأخيرة من حياة البشر.

يشير بيل مويرز، الذي نال جائزة مواطن البيئة العالمية من جامعة هارفارد لعام 2004، إلى هذه الأفكار حين يستشهد بغلين تيرر من مجلة «غريست» (التي تصدر على الإنترنت)، الذي استحضر المواقف الرؤيوية على النحو الآتي:

> لماذا نهتم بالأرض حين يكون الجفاف والقحط والفيضانات والمجاعات والأوبئة الناجمة عن الانهيار البيئي من أشراط وعلامات الساعة كما أنبأ عنها الكتاب المقدس؟ لماذا نهتم بتغير المناخ العالمي حين ستجد أنت وأحباؤك الخلاص في «الصعود»؟
>
> من المفارقة أن هذه السيناريوهات الرؤيوية لا تطرح أي أسئلة عن مسؤولية ومحاسبة النظام العالمي الرأسمالي، الذي تشكل الولايات المتحدة قوته المحركة الرئيسة. ويبدو أن من غير المهم لكتاب هذه السيناريوهات أن سكان أمريكا يمثلون 5% من سكان العالم في حين يستهلكون بطريقة مبذرة ومتلافة

ربع إنتاجه من النفط والغاز الطبيعي، وذلك كمثال واحد على استخدام الموارد المهمة[25]. لماذا؟ حين نأخذ منطق المؤمنين بالسيناريوهات الرؤيوية الجبرية على محمل الجد، نجد أن كل شيء بقضاء الله وقدره. ونظرا لأنه القدير الوهاب، فهو يزودنا بكل ما نحتاج إليه ــ وأكثر. وإذا وهبك حصة كبيرة من ثروات هذا العالم، يجب أن تأخذها كقضية مسلم بها ورمز يدل على البركة الإلهية.

وبالاقتباس من بيل مويرز مرة أخرى:

علمت.. أن أصدقاء الإدارة في شبكة السياسة الدولية، التي تدعمها شركة اكسون موبيل وغيرها، أصدروا تقريرا جديدا يؤكد أن تغيير المناخ «خرافة، ومستويات مياه البحار لا ترتفع» والعلماء الذين يعتقدون باحتمال وقوع كارثة «يسببون التشوش والإرباك»[26].

أكتب هذه الكلمات بعد ثلاثة أيام من اجتياح إعصار كاترينا الساحل الجنوبي للمسيسيبي والاباما ولويزيانا، ودمار العديد من البلدات وغرق مدينة نيواورليانز. وأتساءل ما هي ردة فعل قراء «المتروكون» في منطقة «حزام الإنجيل» القريبة على هذه الكارثة. هل تزعزع خيالهم الرؤيوي عن «الضيقة» في الأيام الأخيرة، أم تعزز قناعاتهم بأن النهاية وشيكة فعلا؟

القدس: عاصمة نهاية الزمان

مثلما لاحظنا آنفا، تحتل مدينة القدس مكانا مركزيا في السيناريوهات الرؤيوية التي وضعها الكتاب المسيحيون والمسلمون واليهود المختصون بنهاية

الزمان. ولهذا تأثير مباشر في خيارات الزعماء السياسيين لأطراف الصراع كافة. ويبدو لي أنه لا يوجد مكان آخر يتمظهر فيه «اللاهوت السياسي» لسيناريوهات آخر الزمان بمثل هذا الوضوح وهذا الأسلوب المهدد. إذ يتوقع المؤمنون اليهود أن يكشف المسيح عن نفسه في أورشليم، وهم على قناعة بأنه سيدخل المدينة القديمة المسورة عبر فتح الباب الشرقي المغلق دائما. أما الكتاب المسلمون الذين يتناولون مسألة أشراط وعلامات الساعة فيؤكدون أن المهدي المنتظر سيحكم العالم من القدس الشريف. وفيما يتعلق بالكتاب المسيحيين من أمثال تيم لاهاي وسواه، يجب أن تكون جيروزاليم في أيدي الشعب اليهودي كاملة قبل أن يتمكن المسيح من العودة. ويجب بناء المعبد الثالث على جبل المعبد، وهذا يقتضي ضمنا إزالة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ـ إما بالتدخل الإلهي المباشر أو بسلاح دنيوي غامض. لا حاجة بنا إلى الإشارة التفصيلية إلى الجماعات المسيحية المحافظة في الولايات المتحدة وهولندا وغيرهما التي تدعم بكل نشاط اليهود الذين يريدون العودة إلى الأرض المقدسة، وتؤيد المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتطالب بالبدء في بناء المعبد الثالث..الخ[27].

قال بات روبرتسون: «حزام الإنجيل هو شبكة أمان لإسرائيل في الولايات المتحدة»، وأعد ذلك نوعا من التهكم الواضح، ربما عن غير قصد. إذ يعترف هو وغيره من الكتاب المتخصصين بموضوع آخر الزمان بأن تجمع اليهود في أرضهم الموعودة ليس سوى شرط مسبق للعودة الثانية للمسيح. ويعتمدون على 144 ألف يهودي يقبلون المسيح بوصفه منقذهم المخلص؛ أما البقية فتنتمي إلى الجماهير المدانة المحكوم عليها بالهلاك. وحين يأتي المسيح الحقيقي، سوف تتحول أرض إسرائيل إلى ميدان للمعركة النهائية، حيث تحتشد وتلتقي جميع جيوش الأرض. هذا هو إذن «الحل

النهائي»: سوف تختفي دولة إسرائيل. وهذا يقتضي ضمنا فناء جميع اليهود الذين لم يقبلوا بالمسيح. فأي «شبكة أمان» هذه؟ أعتقد أن هذا الخيال القائم على الإبادة الجماعية يفضح شهوة عارمة وشنيعة للعنف، وتكمن في بؤرة هذا الإيمان عدمية إلحادية على الصعيد العملي. جيزكيل لانداو، المربي والداعية للسلام الذي يحمل جنسية مزدوجة (إسرائيلية وأمريكية) يعلق على الموضوع بأسلوب مناسب وفي محله:

> نظرا لوجود عائلتي وأصدقائي في / وحول القدس، أرتجف حين أفكر بما سيحدث لأحبائي ولجميع سكان الأرض المقدسة إذا تحقق برنامج نهاية الزمان الذي وضعه المسيحيون المؤمنون بالازدواجية الثنوية. من المحزن أن الخطر يضاعفه تحالف غير مقدس أقاموه مع اليهود الرؤيويين الذين يتركز حلمهم شبه المسيحاني على معبد يهودي ثالث يحل محل قبة الصخرة والمسجد الأقصى. إن حلم نهاية الزمان الذي يهيمن على هؤلاء اليهود والمسيحيين المتزمتين هو في الواقع كابوس للآخرين كلهم، لأنه يستدعي حربا يهودية / مسيحية شاملة مع العالم الإسلامي[28].

بوصفي مواطنا المانيا، أتأثر تأثرا بالغا بذلك كله: فأثقل عبء وجب علينا نحن الألمان حمله هو المحرقة، استئصال اليهود الأوروبيين تقريبا على أيدي «جلادي» هتلر*. لذلك، أشعر بالتزام عميق بأمن وأمان دولة

* عزيزي القارئ هذه دعاوي كاذبة استطاع الصهاينة إخضاع العالم بالاقتناع والتصديق بها من كثرة الزن الإعلامي. فدعوى إبادت اليهود من قبل النازية أصبحت الآن حقيقية وتباد شعوب في أوطانها على أيدي اليهود ولا يقال لها هذه نازية علماً بأن النازية طالت آخرين وأكثر من اليهود ذهبوا ضحايا لها ومع هذا لم تُقَمْ النياحة عليها.

إسرائيل. وهذا يتضمن أنني أريد أن تصبح دولة إسرائيل جزءا دائما وباقيا من الشرق الأوسط،، دولة يمكن فيها لليهود من مختلف الخلفيات والمشارب العيش معا دون خوف من تهديدات المذابح والإبادة الجماعية. وهذا يقتضي أيضا أن تعمل حكومات إسرائيل على بناء علاقات عادلة ومستدامة مع جيرانها، خصوصا الفلسطينيين، الذين يملكون حقوقا مبررة في الأراضي ذاتها وفي مدينة القدس.

لذلك فإن أسوأ ما يمكن أن يتصوره المسيحيون لإسرائيل هو مفاقمة علاقاتها الإشكالية مع جيرانها عبر تحويل الأرض المقدسة إلى ساحة معركة رؤيوية. أعتقد أن من مصلحة إسرائيل أيضا أن تدعم البلدان الأوروبية والولايات المتحدة البلدان العربية المجاورة في العمل على إيجاد أوضاع ديمقراطية مستدامة تسودها العدالة والمساواة، وتساعد على إقامة الدولة الفلسطينية ضمن حدود واضحة ومعترف بها. أما مستقبل إسرائيل فلا يمكن ضمانه في حالة من الحرب المستمرة مع الشعوب المجاورة وإذلالها وإهانتها. من المرجح أن تكون تجارب العجز هذه قد أسهمت في التنامي السريع للأفكار الرؤيوية الإسلامية. ومن ثم، نحن بحاجة إلى أن نفعل كل شيء ممكن لإعادة بناء إحساس بالكرامة لدى الشعوب العربية، وتحييد غضبها المدمر للذات، وإيجاد حيز لتوطيد علاقات عادلة ونزيهة معها.

لا حاجة إلى التفكير مرتين

هنالك عنصر آخر يدخل اللعبة حين نفكر بتأثير سيناريوهات آخر الزمان الرؤيوية. فنظرا لأن الله، تعالى ذكره عما يصفون، أمر بأن يجري تاريخ العالم في مسار المجابهة كما تزعم، فإن الطاعة تفرض على المؤمنين

القانتين التفكير بأنفسهم بوصفهم أدوات للخطة الربانية. فالله هو الفاعل والمدبر، وهو المسؤول؛ أما مسؤولية المؤمنين فتكمن في عبوديتهم وخضوعهم لإرادته. وهذا بدوره يريح نفوسهم ويحررها من المسؤولية المباشرة على التعامل مع مختلف مشكلات الحياة الدنيا. وحالما يقبلون الإطار الرباني المزعوم للتاريخ القائم على مبدأ إما/ أو، يمكنهم رؤية تعقيدات الوجود على المستوى الشخصي وتحديات العمل المهني إما كتوكيد للإيمان أو اختبار وامتحان له. وفي الحالتين كلتيهما ليس من الضروري الاهتمام كثيرا بالتحديات الفكرية أو المشكلات الأخلاقية، لأن من واجب العبد الطاعة لا الشك في الطرائق الربانية. ومن الواضح أن التحرر من عبء المسؤولية يوفر للنفس راحة هائلة، خصوصا للذين أرهقتهم تعقيدات الحياة اليومية الحديثة، وأضناهم غموضها وأعياهم التباسها. راحة من البحث عن تسويات معقدة لقضايا معقدة. إذ يمكن تقليص التحديات العلمية والأخلاقية، لأنه تعالى جعلها واضحة كالشمس. وما يطلبه من عباده هو الطاعة، المجردة والصرفة والبسيطة.

يغري هذا المنظور على نحو خاص الذين يحتلون مناصب قيادية؛ فإذا كانت الطاعة أمرا حاسما، فلا داعي لأن يقلقهم الذنب الذي هو جزء لا يتجزأ من مناصبهم العليا. أنا هنا لا أشير إلى الأخطاء: فهي جزء من ورطتنا وطبيعتنا البشرية ويمكن تفسيرها وتصحيحها، رغم أنها قد تفرض في بعض الأحيان كلفة كبيرة. بل أشير إلى الشعور بالذنب كعاقبة حتمية لعملية صنع القرار الواعية. فكل قرار لأحد الخيارات يعني ضمنا قرارات تستثني الأخرى؛ وكل اختيار لأحد الأشخاص يعني رفض الآخرين المؤهلين والأكفاء أيضا. ولذلك فإن من السذاجة الافتراض أن القابعين في السلطة يمكنهم المناورة لتفادي الشعور بالذنب. الذنب ظل السلطة

الملازم لها. فإذا استطاع هؤلاء نقل سلطتهم ـ وتبعاتها وعواقبها ـ إلى رب التاريخ، لن يكونوا مضطرين لمواجهة العبء الموجع للذنب. والارتياح الهائل الذي يوفره الإيمان الرؤيوي القائم على إما/ أو يتمثل في أن الفرد، حين يكون عبدا مطيعا وقانتا، لن يكون مخطئا في نهاية المطاف، بغض النظر عما يقوله الآخرون.

الشرك الرؤيوي

حاولت فيما سبق إثارة السؤال المتعلق بالانشغال بسيناريوهات نهاية الزمان: هل هو «محلي وأهلي» مقتصر على الثقافة الدينية الأمريكية أم لا. ومثلما بينت إشاراتي إلى الكتابات الرؤيوية الإسلامية، يتضح أن من الخطأ القول إن ازدهار صناعة «نهاية العالم» شأن أمريكي محض. لكن يمكننا القول إن السيناريوهات الرؤيوية تزداد وتتكاثر بوفرة حيث تسود التقاليد المسيحانية ـ والاعتقاد بألفية المسيح على وجه الخصوص. لا أرغب في المبالغة في توكيد أوجه الشبه الرؤيوية الإسلامية والمسيحية. لكن من الممكن ملاحظة أن السيناريوهات الرؤيوية في النسختين كلتيهما مؤسسة على تقاليد أخروية محددة. فكلما تأطرت التوقعات الأخروية ضمن سيناريوهات نهاية الزمان الإطلاقية، تنتهي في شرك: سيناريوهات نهاية الزمان تصطدم بحائط مسدود لأنها تدعي تجسيد العاقبة النهائية والوحيدة للقراءة الألفية للتاريخ. وبهذا المعنى تعد صورا كاريكاتورية للآمال المسيحانية الأصلية*.

* هذا التعبير غير مناسب الأولى أن يقال وبهذا المعنى تؤكد النظرة الإسلامية ما ورد في الديانة المسيحية الصحيحة التي لم تطلها يد التحريف المزيفة فالدين الإسلامي لا يخالف الديانات السابقة التي أتى بها الأنبياء والرسل من الله سبحانه وتعالى.

في حالة الإسلام، يتعذر إنكار حقيقة أنها تمتلك مكونات أخروية قوية طالما تعد نفسها التمظهر النهائي لإرادة الله، كما كشفها النبي ﷺ، ومن ثم تدعو إلى توفير «النظام الصحيح والحق» للعالمين. يبدو أن هذا المنهج قد تأكد بصورة مجيدة عبر الانتشار السريع للإسلام خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين. لقد ترسخ الإسلام كقوة عالمية «عظمى»، امتد سلطانها من الهند شرقا إلى إسبانيا غربا. ولا يمكن لأحد إنكار حقيقة أن الإمبراطورية الإسلامية كانت أكثر الممالك حداثة وتسامحا في القرون الوسطى. واستفادت منها المجتمعات المسيحية في أوروبا أكثر مما ترغب في الاعتراف به اليوم. لذلك، هنالك العديد من الإيجابيات التي يمكن أن نعزوها إلى الخلافة الإسلامية في عهودها المبكرة، ومن المفهوم أن المسلمين اليوم يشعرون بالفخر والاعتزاز بهذا الجزء من ماضيهم التليد.

فحسب تعبير فاميك فولكان، يمكننا القول إن الإمبراطورية الإسلامية في عهودها المبكرة أصبحت «النصر المختار» للشعب العربي. يجعل هذا النوع من التأويل من المسلمين وضع اللوم حصريا على الغزوات التدميرية «الصليبيين» والقوى الغربية وتحميلها مسؤولية الانحطاط البطيء للإمبراطوريات الإسلامية ـ والعجز الذي يعانونه حاليا. وبالمقارنة مع عظمة الخلافة الإسلامية في العهود المبكرة، يشعرون أن انحطاطهم وعجزهم يمثلان إذلالا مهينا ورهيبا.![29].

ويمكننا الافتراض بكل ثقة أن كل طرف ينزع إلى المبالغة في تقدير قوة العدو. لكن ذلك لن يجعل الوضع أقل خطرا. فوفقا للسمات الموجزة آنفا، يقود اللاهوت الرؤيوي للمؤمنين والمتأثرين بفكرة «المتروكون» الدينَ المسيحي إلى حالة مغلقة المنافذ ومسدودة الأفق. ويحول تفسيره الخاص للكتاب المقدس إلى حقيقة مطلقة ونهائية، ومن ثم لا يترك مساحة لأي

حوار حول التنوع الداخلي الحاشد في الكتاب المقدس وبؤر الاهتمامات المتنوعة في الدين المسيحي. ويضع التاريخ على مسار تصادمي يتجه نحو الفناء النهائي الذي لا يسمح بأي بدائل تظهر على السطح. فضلا على ذلك، يحول المؤمنين إلى أدوات مسيرة للإرادة الإلهية الجبرية القاهرة ومن ثم يحررها من المسؤولية الشخصية. بكلمات أخرى، يعد هذا اللاهوت دينا يفتقد الرحمة والتراحم والتعاطف حتى مع أتباعه، دينا دون مسؤولية شخصية (باستثناء الذنوب والخطايا «الشخصية» الجنسية في معظمها). وعند التفكير به، يبدو دينا متخما باليأس والإنكار. وهذا يفسر صور العنف والإبادة الجماعية والغضب الساحق المدمر في سلسلة «المتروكون».

ألاعيب نهاية الزمان في عالم نهاية الزمان

قيل إن الحادي عشر من سبتمبر كان نقطة تحول في التاريخ. لكن هناك أيضا «متخصصين في نهاية الزمان» يزعمون أن عام 1948 (تأسيس إسرائيل) يمثل نقطة حاسمة في التاريخ. لكن من الدقة القول إن تاريخ العالم أخذ انعطافة غير مسبوقة في الثامن من آب/ أغسطس عام 1945. فمع إسقاط أول قنبلتين ذريتين على المدينتين اليابانيتين، دخل العالم مرحلة أصبح فيها الدمار الشامل للحياة على هذا الكوكب أمرا محتملا في أي وقت. قرار استخدام القنبلتين الذريتين أتى بعد الحرب العالمية الثانية، التي كانت لحظة تاريخية ملآنة بالفظائع والمذابح التي لم يشهد العالم مثيلا لها من قبل. فقد قتل وشرد الملايين، وسويت مدن بكاملها بالأرض. وإنهاء هذه المذبحة، بأي وسيلة، كان شيئا تشوق العالم إليه. ومعاقبة الأمم التي بدأتها، بأي وسيلة أيضا، ربما بدت للكثيرين نوعا من العدالة المروعة.

ولدت من رحم هذا السيل الدافق من الكره والغضب نهاية زمان حقيقية، ويجب على البشر الآن التكيف معها. ومثلما قال يورغن مولتمان:

> غيرت هيروشيما عام 1945 نوعية التاريخ البشري تغييرا جوهريا: أصبح زمننا زمنا محدد الزمن.. هذا الزمان، حيث يمكن للبشرية أن تنتهي في أي لحظة، هو في الحقيقة وبالمعنى العلماني المحض ودون أي صور رؤيوية، «نهاية الزمان»؛ إذ لا يتوقع أحد أن تلحق بهذه الحقبة النووية حقبة أخرى يتوقف فيها تهديد البشرية المميت لذاتها[30].

بعد ستين سنة، هنالك ترسانات من الأسلحة النووية تكفي لقتل كل شيء حي على الأرض مرات ومرات. في الحياة اليومية نفعل ما بوسعنا لإنكار هذا الواقع. لكن التوتر الذي تحاول معه القوى النووية منع الدول الأخرى من الانضمام إلى «النادي» ـ إيران آخر الأمثلة عند كتابة هذه السطور ـ يشير بدلالته إلى أن الحكومات تعرف حجم تهديد هذا السيناريو المدمر. في حين نحاول العيش حياتنا العادية وكأن هذا الخطر المطلق المدمر لا وجود له. ونلجأ إلى أسلوب الإنكار الجماعي من أجل هذه الحياة «الطبيعية والعادية». كيف نعيش مع الإدراك المستمر لهذا التهديد بالقتل والفناء؟ الإنكار طريقة لتجنب الإحساس بالعبثية واللاجدوى. لا يمكن حتى للناشطين المناضلين من أجل السلام ونزع الأسلحة النووية تفادي حالة الشلل الناجمة عن الإنكار، لأن الحقيقة واضحة لا لبس فيها: حتى إذا نجحوا سوف يستمر واقع نهاية الزمان. فقد اخترعت «القنبلة»، ومعرفة إنتاجها أصبحت متاحة ومتوفرة في شتى أرجاء العالم. وحتى لو دمرت جميع الأسلحة والأجهزة النووية اليوم، ستبقى معادلة بنائها من

جديد قائمة وفي متناول اليد. علينا جميعا أن نعيش مع هذه الحقيقة. ولذلك أصبح الوعي بهذه القوة النهائية للتدمير، وتنظيم شؤون أمم العالم بطريقة تتجنب فيها استخدامها، مسؤولية كبرى ملقاة على عاتق الزعماء السياسيين كلهم. وطوال السنوات الستين الماضية ظلت مؤسساتنا السياسية تتذكر هذه المهمة المرعبة، وإن ظهرت حالات اقترب فيها العالم من حافة اندلاع حرب نووية. ومنذ ذلك الحين، ظلت هذه اليقظة بحاجة إلى التعزيز والرعاية والاستدامة لدى جميع الأجيال الآتية.

في عام 1945 كانت الجحيم الذرية هي التي يجب أن يحسب حسابها فقط. لكن خلال العقود اللاحقة ازدادت الكوارث البيئية التي سببها البشر إلى درجة أن أجزاء كبيرة من الأرض غدت مناطق غير مأهولة إلى الأبد[31]. إذ أظهر الإعصاران كاترينا وريتا أن المناطق الساحلية المنخفضة لا يمكن السكن فيها بالطريقة العشوائية القديمة. وليس من الضروري أن يكون المرء متنبئا كي يعرف أن أساليبنا المعتادة في العيش سوف تتعرض لضغوط متزايدة. فإذا أرادت شعوب العالم الاستمرار في البقاء في ظل ظروف مقبولة، فإنها بحاجة إلى القبول بواقع نهاية الزمان الذي نعيشه. واقع أوجده البشر أنفسهم ويجب أن يحسبوا حسابه.

ما هي العلاقة بين حالة نهاية الزمان الواقعية هذه والنمو الهائل لسيناريوهات نهاية الزمان الدينية، خصوصا في الولايات المتحدة؟ الإجابة المعقولة والمنطقية هي أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة، حتى الآن، التي استخدمت القنابل الذرية. فضلا على ذلك، تزايد إنتاج الأسلحة النووية المتقدمة إلى درجة أن عنفها التدميري يفوق الخيال. فما الذي يمكن فعله إزاء هذا الواقع المروع والشعور المشوش بالذنب، واليأس، والقنوط الذي يولده؟ يبدو أن كل شيء خرج عن زمام السيطرة.

نصل هنا إلى مأزق نفسي، يبدو أن سيناريوهات نهاية الزمان الرؤيوية تقدم له إجابة «إنقاذية». فنظرا لأنها تخبرنا بأن العالم متخم بالقوى الشريرة، يصبح لوجود الأسلحة النووية معنى منطقيا. ولأن تاريخ العالم يتجه نحو حرب نهائية شاملة، تعد القوى التدميرية للأسلحة النووية أمرا حتميا ـ بل مرغوبا. وهكذا فإن من المنطقي الافتراض أن الأسلحة النووية هي جزء من «ضيقة» آخر الأيام. هذا «الإيمان» ينقل عبء المسؤولية عن أسلحة الدمار الشامل هذه إلى المستوى الميتافيزيقي الماورائي. ففي النهاية، ليس التهديد النووي سوى جزء من الخطة الإلهية المحكمة.

هذه آلية نفسية تحول اليأس إلى «إيمان». إضافة إلى أنها توفر منفذا للشعور المكبوت بالذنب والعجز: الندم الخفي والقلق المخبأ يتحولان إلى «غضبة حق» تبرر صور الإبادة الجماعية لحروب وفظائع نهاية الزمان. أما العنف الإباحي الذي يتمظهر في الصور التخييلية لـ «الظهور المجيد» (الكتاب الثاني عشر من سلسلة «المتروكون»)، فيجسد مثالا نموذجيا على قدرة مشاعر العجز اليائسة على التحول إلى صور للقدرة المقدسة المطلقة بكل ما يميزها من قتل وفتك: الطريقة الوحيدة «إنقاذ» العالم هي تدميره!

أعتقد أن ذلك كله يمثل تفسيرا محتملا للنجاح الساحق الذي حققته قصص نهاية الزمان الدينية، مثل «المتروكون». ويمكننا أيضا من إدراك حجم اليأس العميق، وليس الإيمان البهيج، الذي يكمن في صميم دين نهاية الزمان. لكن إن صدق ذلك، فهو يثير أسئلة تتعلق بفساد المسيحانية نفسها.

هوامش

1- كان جيم واليس أحد اللاهوتيين البارزين الذي عمل على مغالبة هذا الصمت في كتابه:

God's Politics: Why the Right Gets It Wrong and the Left Doesn't Get It (san Francisco: HarperSanFrancisco,2005).

كلية اللاهوت بجامعة ييل ناقشت بعضا من هذه المشكلات، انظر:

"End of Times and End of Games: Is Scripture Being Left Behind?", Reflections, Spring 2005.

2- الشيء ذاته يصدق على كتاب هال ليندسي «الكوكب الأرضي العظيم السالف» الذي نشر أول مرة عام 1970 وظهرت منه عدة طبعات لاحقة (مع تعديلات لافتة). ومع أنه أصاب نجاحا ساحقا في أمريكا، حيث باع في نهاية المطاف أكثر من عشرين مليون نسخة، إلا أن الطبعة الألمانية لم تظهر إلا بعد كتاب «Alter Planet Erd Wobin?» عام 1991 ولم تحقق نجاحا يذكر.

3- للاطلاع على تحليل مفصل لتجربة القراء مع «المتروكون»، انظر:

Amy Johnson Frykholm, Rapture Culture: Left Behind in Evangelical America (New York: Oxford University Press, 2004).

وللاطلاع على مصفوفة من الاعتراضات النقدية من المسيحيين، انظر:

Bruce D. Forbes and Jeanne Halgren Kilde, eds., Rapture, Revelation, and the End Times: Exploding the Left Behind Series (New York: Palgrave Macmillan, 2004).

4- انظر:

Jurgen Moltman, Coming of God, pp. 129 - 255.

5- المثال جسده يوهان راب (1757-1847) الذي انتظر عودة المسيح سنة 1828 في هارموني (بولاية بنسلفانيا). انظر:

Eberhard Fritz, Radikaler Pietismis in Wurttemberg (Epfendorf, Germany: Bibliotheca Academica Verlag, 2003), pp. 201 - 56 .

6- انظر:

George Leibbrandt, Die Auswanderung nach Russland, 1816 - 1823 (Stuttgart: Ausland und Heimat Verlag, 1928.

7- Moltman, Coming of God, pp. 145, 199 - 200.

8- Moltman, p. 189.

9- Moltman, pp. 156 - 59, 187 - 188.

10- استقصى ثلاثة من المتخصصين الأمريكيين في علم النفس الاجتماعي، هم فيستينغر وريكين وشاكتر، ظاهرة مشابهة في كتابهم «حين تخفق النبوءة» (1957)، الذي يدرس وضع جماعة في أمريكا تؤمن بنهاية الزمان وواجهت فشلا في تنبؤاتها.

11- أبرز ممثل للداربية في المانيا هو كارل بروخهوس، الذي قابل داربي عام 1854. في الحقيقة، انضم العديد من أتباع داربي إلى الكنائس المعمدانية. وهنالك اليوم زهاء خمسة وثلاثين ألفا من الداربيين في المانيا. للاطلاع على مزيد من التفاصيل، انظر:

O. Eggenberger, «Darbysten», Religion in Geschichte und Gegenwart, 3rd ed., vol. 2 (Tubingen: Mohr, 1986), pp. 40ff.

12- انظر:

Craig C. Hill, In God's Time: The Bible and the Future (Grand Rapids: Eerdmans, 2002), pp. 200 - 201.

13- تقول اديلة كولينز: «مقاربة أنصار التدبير الإلهي لشؤون الكون نوع من الاستيلاء الأصولي المحافظ إلى حد ما على التنوير. إذ تبنى هؤلاء قيم

الفكر العقلاني والمنهجي من عصر التنوير. وحاولوا قراءة الكتاب المقدس باعتباره وحدة واحدة بطريقة جديدة على درجة كبيرة من العقلانية». انظر Reflections, p. 12:.

14- للاطلاع على مثال لافت، انظر:

John Polkinghorne and Michael Welker, eds., The End of the World and the Ends of God: Science and Technology on Eschatology (Harrisburg, PA: Trinity Press International, 2000).

15- انظر:

David Cook, «Muslim Fears of the Year 2000,» The Middle East Quarterly (June 1998): 5162-;

ظهرت نسخة من هذه المقالة على موقع منتدى الشرق الأوسط:

http://www.meforum.org/article/397 (accessed Oct. 20, 2005).

انظر أيضا الدراسة المطولة في كتاب كوك:

Contemporary Muslim Approach Apocalyptic Literature (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 2005).

16- القاهرة: دار الفتح للإعلام العربي (1987).

17- الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد اشتهر بهجومه المتكرر على إسرائيل. ويبدو أنه متأثر تأثرا عميقا بالسيناريوهات الرؤيوية في المذهب الشيعي، التي تنتظر عودة آخر الأئمة الشرعيين، أبو القاسم محمد، الذي سيكشف عن نفسه بوصفه المهدي، مسيح آخر الزمان الذي سيؤسس حكم العدل على الأرض بعد أن ملئت جورا. ولذلك يمثل اختفاء إسرائيل عن الخريطة «ضرورة» لنهاية الزمان. انظر:

Rudolf Chimelli, «Der Mann, der aus der Tiife Kam,»Suddeutsche Zeitung (Dec. 19, 2005), p. 3.

18- انظر:

Gershom Gorenberg, The End of Days: Fundamentalism and the Struggle for the Temple Mount (Oxford and New York: Oxford University Press, 2002).

19- هذا هو رأي محمد عيسى داود في كتابه:

Warning: the False Prophet is Invading the World from the Bermuda Triangle (1992), quoted in David Cook, «Muslim Fears,» p. 3 (the title of Da'ud's book is translated by Cook).

20-انظر:

Cook, ContemporaryMuslim Apocalyptic, pp. 130 - 163 - 66.

21- ورد الشاهد في:

Tyler W. Stevenson, «Revelation's Warning to Evangelicals: Left Behind May be Hazardous to Health» (Reflections, pp. 35f.).

22- انظر:

Tim LaHaye and Jerry Jenkins, Glorious Appearing, vol. 12 of Left Behind (Wheaton, IL.: Tyndale, 2004), Quoted by Paul Boyer, «Give Me That End-Time Religion: The Politicization of Prophetic Belief in Contemporary America» (Reflections, p. 26).

23- سعيد أيوب: «عقيدة المسيح الدجال في الأديان» (بيروت: دار الهادي، 1991)، ص195. (ترجمة عن الإنكليزية)، انظر:

Cook, «Muslim Fears,» p. 3.

24-انظر:

Bill Moyers, «There is no Tomorrow,» Minneapolis Star Tribune, Jan. 30, 2005.

Glenn Scherer, "The Godly Must Be Crazy," Grist (online), Oct. 27, 2004:

http://www.grist.org/news/maindish/200417/10//scherer-

christian/index.html (accessed Dec. 10, 2005).

25- انظر جداول «رانك اوردر» البيانية لاستهلاك النفط، واستهلاك الغاز الطبيعي، والسكان، على موقع وكالة المخابرات المركزية (كتاب الحقائق) على الإنترنت:

http://www.cia.gov/cia/publications/factbook (accessed Dec. 5, 2005).

26- Bill Moyers, «There is no tomorrow.»

27- للاطلاع على وصف تفصيلي للبحث عن العجلة الحمراء المطلوبة للتضحية في المعبد الثالث، انظر:

Gorenberg, The End of Days, pp. 7 - 29

28- انظر مراجعة جيزكيل لانداو لكتاب باربرا روسينغ:

The Rapture Exposed: The Message of Hope in the Book of Revelation (Boulder, CO: Westview Press, 2004), in Conversation in Religion and Theology (Hartford Seminary) 3, no. 1 (May 2000), 5460-.

29- انظر:

Cook, Contemporary Muslim: Apocalyptic, p. 92.

30-

Moltman, Coming of God, pp. 2056-.

31- انظر:

Climate Change Report 2001: Synthesis Report, Summary for Policy Makers, An Assessment of the Intergovernmental Panel on Climate Change, Approved in detail at IPCC Plenary XVIII (Wembley, United Kingdom, Sept. 24 - 29, 2001).